

## ما حاجتنا إلى التفكير «بومع» الفارابي اليوم

محمد الحماصي  
كاتب مصري



فحملت همومه، وطرحت أهم إشكالياته، وعبرت بصدق وتماسك ناردين عن مشاغل أهله. ولأمر كهذا، استحوالت الفلسفة إلى الملاء الذي استجمع من خلاله المعلم الثاني كل قواه وخبراته، تاصيلا لنظامه الفلسفي برمته وتشبيها لنسقه الفلسفي، الذي يستقي منابعه الأساسية من روافد عدة: عربية إسلامية وإغريقية.

وعلى الرغم من اقتباسه جانبا من أفكاره عن الشريعة الإسلامية من ناحية وعن الفلاسفة الإغريق من ناحية أخرى، ظل محتفظا بأصالتهم، وترك نظاما فلسفيا قائما بذاته.

ويبقى هذا النظام، باستثناء بعض التعديلات الفرعية والشكائنية، النظام الذي سيهتدي بهديه رهط من المتفلسفة العرب من بعده في المشرق والمغرب.

كان الفارابي من المدافعين القائلين عن الفلسفة في عصر موسوم باستئراء الخرافات والضرعات العرقية والإيديولوجية، فدعا ماثورا ومشهودا له بنقاوته وصفاء عبارته ودقة براهينه وتجنب المناهج الدفاعية والاعتقالية التي وسمت التيارات الفكرية في عصره.

**على الفيلسوف ألا يكون  
سجين الكهف المعرفي للأوائل  
الذين تفسفوا، بل عليه أن  
يؤدي المهمة المنوطة بعهدته  
ويعمل على تأصيل المدينة  
الفاضلة، وذلك بإصلاح نفسه  
أولا ثم إصلاح غيره**



وقد سرّعت هذه التيارات بالانقسات، وأججت نار الخلافات بين الفرق والطوائف؛ تلك الخلافات التي مثلت، في حقيقة الأمر، باكورة التفلسف وإرماصاته الأولى، على نحو ما عبّر عنه الفارابي ذاته، في تعريفه للصنائع وتمييزها بعضها عن بعض، حيث تكون البداية بالطرق الخفية، وتتطور صعودا في بناء الفكر إلى الطرق البرهانية البيهنية للفلسفة.

ويتابع أن الفارابي باطلاعه الموسوعي ومنهجية الصرامة وحكمتها السياسية، وفق في إفادة أهل زمانه وتوجيههم نحو أفضل الطرق التي تحصّنهم من مخاطر الجدل العقيم، ناهيك عن أنه شدد على الجانب الميتودولوجي بلا هوادة، ليس من حيث بناء النظريات الفلسفية وانتقاء أصولها ومصادرها فحسب؛ بل أيضا من حيث طرحها وعرضها على الآخرين. وهذا ما جعله يامن شرس المشركين في أحكامهم وتشجيعهم المتهافت للفلاسفة المتحررين من التبعية الدوغمائية «للسلف الصالح» بأخطار التهم وبعثهم بالزنادقة والكفار.

ويبدو أن الفارابي بتدينه العقلاني، كان مسلما ورعا متحصنا في الأمن نفسه بمرونة أسلوبه وسلاسة تعامله مع القضايا الشائكة في عصره كقضية العلاقة بين المقدس والدنيوي، وإضافة إلى قدرته العجيبة على المرونة في طرح أرائه، فإنه يتقن رصف الحجج بتماسك منطقي في منتهى الرصانة والانسجام.

ويؤكد الجبلي أن الإنجاز الذي حققه الفارابي، إذا ما قيس بمقاييس عصره يُعد سابقا لأوانه. وهو إنجاز يؤكد منزلة راقية لا تقل أهمية عن منزلة المفكرين المحدثين، وهو، أيضا، ما جعله جديرا بالعديد من الدراسات والبحوث النظرية والمقليات التي يصعب إحصاؤها، بل إن كثيرا من الباحثين قد انخض في دراسة أفكار الفارابي وفلسفته.

ضمن فضاء إبستيمي مداره الأساس تاريخ الفلسفة العربية والإسلامية خلال العصر الوسيط ممثلا في فكر الفيلسوف العربي الفارابي الذي يشكل قامة من قامات الفلسفة عبر تاريخها قديما وحديثا وحتى معاصرا، يأتي هذا الكتاب «الفارابي متعدد» نحو فلسفة عربية مركبة» للمباحث التونسي سعيد الجابلي، والذي يمثل في الأصل سلسلة من المقالات والدراسات قام المؤلف بنشرها على مراحل متعاقبة في مجلات تونسية وعربية محكمة.

يطرح الباحث مجموعة من التساؤلات الجوهرية: ماهي تجليات التعدد وسياقاته فارابيا؟ أنى لهذا التعدد الذي يسم المتن الفلسفي ما حاجتنا إلى التفكير «بومع» الفارابي اليوم؟ أتعدى تلك العودة إلى النسق الفلسفي الفارابي إلى هوس معرفي خالص، أم فرضتها أزماننا الأنطولوجية الزاهنة ففكر وممارسة، والاستجابة لرغبتنا الجامحة في فعل التحزب منها؟

ويسعى للإجابة عنها، مؤكدا أنه لا يدعي فتحا مبينا في دراسة الفلسفة الفارابية، كما لا يامن أيضا عنفات البداية وأن المدار الأساسي لعمله هو «تقضي الطابع المركب للفلسفة العربية من خلال الأنموذج الفارابي».

وتبين الباحث إثر ذلك الخاصية الموسوعية التي وسمت النسق الفلسفي لدى المعلم الثاني، ولاسيما من جهة تعدد الموضوعات والمباحث التي طرحتها فيلسوفنا بالدرس والتحليل، وما اتصل بها من ترابط منطقي لافت يستحيل معه الفصل بين مسألة وأخرى.

يسرى الجابلي أن الفارابي أخلص إلى أساطين الفلسفة والحكمة اليونانية مثل أفلاطون وأرسطو، والأفلاطونية المحدثه، وأثر تعظيمهم في الفلسفة والسياسة على الخصوص، لكنه لم يقدمه تقليدا أعمى؛ بل جعل إثارة الحق أحق وأولى من إثارة الأوائل.

وفي هذا مصداق لقلوبه إن الفيلسوف الكامل هو «الذي حصلت له الفضائل النظرية أولا، ثم العملية ببعيد» يقينته؛ لأن القصد إلى الأعمال يكون بالعلم، ولأن إتمام العلم يكون بالعمل؛ لذا، يتعين على الفيلسوف ألا يكون سجين الكهف المعرفي للأوائل الذين تفسفوا، بل عليه أن يؤدي المهمة المنوطة بعهدته ويعمل على تأصيل المدينة الفاضلة، وذلك بإصلاح نفسه أولا. ثم إصلاح غيره ممن في منزله أو مدينته أو أمته.

ويضيف أن النظر في مفاهيم فلسفة الفارابي من هذه الزاوية التاريخية، وإن كان يجلي مكانته الأساسية بين فلاسفة الإسلام، فمن شأنه، إذا ما تم الاقتدار عليه، أن يوقع في ضرب من الاختزال، وأن يمنع من التذنب إلى طرافة الأسئلة التي طرحها المعلم الثاني في اتصالها العضوي بأبعاد النظر الفلسفي في الإنسان.

ناهيك أن الفلسفة الفارابية، في مقاصدها الكبرى، هي فلسفة «إنسية» أي نسق يجعل الإنسان محور التفكير، ويسخر الأنبياء لسعادة الإنسان، وهي بذلك «إنسية أخلاقية»، الأمر الذي أكسب فلسفته صفة الرهانية، التي هي خاصية كل فلسفة حية ما انفكت في فعل التجدد عبر حوار الأجيال، واستحالة الفارابي إثرها فيلسوفا ذا راهنية مثيرة في كل مرة.

ويشير الجابلي إلى أن قراءة آثار الفارابي محفوفة بكثير من المزالق، والطريق إلى مقاصده تستلزم اعتماد إذ أن ما يسترعى انتباه الباحث، هو معالجة الفارابي للموضوع الواحد في عدة مواضع مختلفة، مما يوحي للوهلة الأولى بالتشدد.

غير أن المتفحص يُلقي أن الفكرة لدى الفارابي لا تعطى دفعة واحدة، ولا تتجلى كاملة، إلا بعد رصد ما في سياقات عدة. فهناك مسائل محكمات من أم نسقه الفلسفي برمته، وأخرى متشابهات بين مؤلفاته، وهو لأمر أمثله ضرورة المنهجية، أو طبيعة التدرج الإشكالي في مستوى التعاطي مع القضايا المثارة، لا يخاطب من خلالها الفارابي جمهور القراء والباحثين إلا رمزا.

ويشير الجابلي إلى أن الفلسفة مع الفارابي مثلت عصرها خير تمثيل،

# الفلسفة تحتاج إلى تجديد لتنجح في مواجهة الخطاب السلفي

سعيد توفيق: عبارة أسلمة العلوم متاجرة بالدين



سعيد توفيق: إهمال الفلسفة يصيب العقل بالفراغ ويقدمه لقمة للمتطرفين

سيدة لدى طارحي مفهوم علم الجمال الإسلامي، فإن هناك بسطاء ينساقون وراء كل لافتة دينية، مظلما هو الحال في أنصار الجماعات الراديكالية التي تتخذ من الإسلام ستارا لها، ما يستلزم تنهها وبقطة من جانب الدول والنخب والمجتمعات في مواجهة المد الأصولي الطاغية.

### مواجهة التطرف

يوضح توفيق أن جانبا كبيرا من ظاهرة الإرهاب الديني مصطنع ومبالغ فيه، ويتم الترويج له بواسطة نواثر وأجهزة غريبة لها مصالح وتوجهات معينة تدفعها إلى تعزيز وتشجيع الأفكار الحاكمة للظاهرة في العالم العربي، وليس من السهل القضاء على التطرف في المجتمعات العربية بالاعتماد على الحلول الأمنية وحدها. والتطرف سيطفى بشكل أكبر، ما دامت المجتمعات ببعيدة عن التعليم الجيد والتفكير الخلاق والتحرر في الإبداع والعلم.

ويتابع مؤكدا أن للحكومات دورا هاما في مواجهة التطرف بالإصلاح الديني أولا ثم بالتعليم الجيد الخلاق، القائم على تحرير العقل والاستفادة من منجزات الحضارة الغربية دون تعصب أو عداوة. ويلفت إلى أنه لن يتم قهر ظاهرة الإرهاب وما يتبعها من ظواهر، مثل التعصب والطائفية ورفض الآخر مستقبليا، إلا بتحرر الوعي وتحديث التعليم وترسيخ أسس التنوير، وهو ما يضع أقدام الشعوب على بدايات طريق النهضة.

ينهي توفيق الحوار متحدثا عن إصداره الأخير، قائلا إن الخطرات ليست سيرة ذاتية وإنما سيرة فلسفية، وهي لا تتناول تفاصيل الحياة الشخصية مرتبة أو متراتبية، فالذات ليست منطاط الأمر في السيرة، والشخص ليس البطل وإنما البطولة للفكر وللشعور، والخطرات جمع خاطرة، لكنها تختلف عن الخواطر في كونها ما يخطر على الذهن ويخضع للخاطرة للتأمل.

ويلفت إلى أنه سعى إلى تطبيق والأدب الإسلامي، ثم بعد ذلك الاقتصاد الإسلامي، وغيرها من المسميات المستغلة لعواطف الناس.

لم يقتصر الأمر على ذلك، وإنما استغل البعض وجود آية كريمة في القرآن الكريم تقول: «وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تُسْرِحُونَ»، ليستغلها في غير محلها ويصوغها مفهوما غريبا سموه علم الجمال الإسلامي، وهو ما كان محل تحليل وتفنيد ونقد من سعيد توفيق، الذي يتحدى أن يكون هناك مفكر عظيم أو مبدع كبير تخرج في مدرسة السلفية، في الماضي أو الحاضر، مكررا أن التسليم بكل نقل دون إمعان العقل فيه لا يُفضي إلى تطور وتقدم.

ويشير إلى أن مصطلح علم الجمال الإسلامي مصطلح خادع، وغير سليم ويدخل ضمن فكرة الاتجار بكلمة إسلامي وقرنها بساي إبداع أو إنجاز إنساني استغلالا لعواطف الناس. ويلفت إلى أنه تناول بالتحليل ما أطلق عليه مفهوم الجمال الإسلامي في كتاب خاص، وانتهى إلى تهافت المصطلح، وعلم الجمال بمفهومه الحديث لم ينشأ إلا في القرن الثامن عشر الميلادي.

ويشير إلى أن المقصود من مثل هذه المصطلحات، هو إسقاط إسهامات المفكرين العظام في العالم الغربي من أمثال شوبنهاور وجان بول سارتر، وغيرهم من الفلاسفة في العالم والتوهين بما قدموه للبشرية، وهذا توجه خبيث يحمل الكثير من التنكر والكراهية للحضارة الغربية الحديثة. ويضيف توفيق أن معظم المروجين لذلك المصطلح لا يفهمون في علم الجمال، ولم يدرسوه، وهم بإصرارهم على التبشير بهذا المصطلح يسيئون إلى علم الجمال، بل إلى الدين نفسه. ويقول إن العلوم جميعا لا يمكن تبنيها، لأن العلم متغير وقابل دائما للنقد والتكذيب، في حين الدين مقدس وثابت، والعبارة الشهيرة المكررة بأسلمة العلوم لا تعني سوى المتاجرة بالدين لتحقيق مكاسب تقتصر على المتاجرين.

ويشدد على أن الدين لا ينطوي على نظريات علمية وإنما على دعوة للتعلم مثلما ينطوي على دعوات أخرى للتدبر والتفكير والبناء والعمل، والتحلي بمكارم الأخلاق.

إذا كانت هناك نوايا

ويؤكد توفيق أن غياب الفلسفة يعني غياب الفهم، وغياب التأويل، ثم الحوار والتساؤل اللذين يؤديان في النهاية إلى الفهم، ما يمهد الطريق للمتاجرين بالدين للتقدم والانطلاق، وقال، إن العقل عندما يصبح فارغا يتحول إلى لقمة سائغة للمتطرفين ليصبوا فيه كل ما يحلو لهم من خزعبلات وأفكار تمهد الطريق للتطرف والإرهاب، ولا سبيل لمواجهة التطرف دون إحياء حقيقي لعلوم الفلسفة، ليس على مستوى المؤسسات الأكاديمية وحدها، وإنما بين النخب المثقفة والمجتمعات التعليمية أيضا.

يبدو الرجل دقيقا جدا في اختيار كلماته للتعبير عن أرائه، إذ يجنح إلى السكنون خلال الحوار والذي يبدو فيه مفتنعا عن كلمات لها مدلولات أقرب لشرح وتأييد وجهة نظره. ويعود بذاكرته إلى الماضي لينفض الغبار عن عهد كانت فيه الحضارة الإسلامية تعيش نهضتها، وفيها قامت حركة تأويل حقيقية بعد ترجمة أفكار كبار الفلاسفة، لتنتج مفكرين كبار أيضا في مجال الفلسفة مثل ابن رشد، وفي الصوفية مثل محيي الدين بن عربي، وفي علم الكلام الذي تميز فيه مفكر المعزلة.

يلفت توفيق إلى أن جميع هؤلاء المبدعين العظام واجهوا موجات من التكفير والتهميد من الأصولية السائدة والمعادية دوما للعقل والرافضة للتأويل. ومع مرور الوقت وتغير الأوضاع بهتت ملامح ذلك العصر وتراجع التفكير الفلسفي أمام المد السلفي، وتكررت الدعوى المغلوطة بأن الدين يرفض الفلسفة، وسلط سيف التكفير على كل فيلسوف فتح باب الإجتهااد وفكر بشكل مختلف.

### السلفية تعادي العقل

لم تكتف الأصولية الحاكمة للفكر في العالم العربي بخنق أي أفكار عقلانية أو أطروحات إبداعية بدعوى مخالفة الدين، وإنما سعت أيضا إلى وضع أختامها على كافة العلوم الاجتماعية والإنسانية المتنوعة، فصاغت مصطلحات مثيرة للعواطف الشعبية من قبيل الفن الإسلامي والإبداع الإسلامي والأدب الإسلامي، ثم بعد ذلك الاقتصاد الإسلامي، وغيرها من المسميات المستغلة لعواطف الناس.

لم يقتصر الأمر على ذلك، وإنما استغل البعض وجود آية كريمة في القرآن الكريم تقول: «وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تُسْرِحُونَ»، ليستغلها في غير محلها ويصوغها مفهوما غريبا سموه علم الجمال الإسلامي، وهو ما كان محل تحليل وتفنيد ونقد من سعيد توفيق، الذي يتحدى أن يكون هناك مفكر عظيم أو مبدع كبير تخرج في مدرسة السلفية، في الماضي أو الحاضر، مكررا أن التسليم بكل نقل دون إمعان العقل فيه لا يُفضي إلى تطور وتقدم.

تزخر المكتبة العربية بإسهامات فلسفية تجاوزت حدودها العربية والإسلامية لتصل إلى العالمية، إلا أن هذا المنتوج العقلي والفكري ضاع وسط تأويلات سلفية تلغي العقل. واليوم تواجه الفلسفة، ما واجهته في الماضي، سواء في تاريخ الحضارة الإسلامية، أو تاريخ الحضارة الإنسانية ككل، من حيث الاتهام بالتجديف وحتى الكفر، نظرا إلى ما يمثله أعمال العقل والتفكير الفلسفي القائم على التساؤل والبحث من خطر على التيارات الإسلامية التي تتوجه إلى العاطفة وتخشى العقل.



مصطفى عبيد  
كاتب مصري

القاهرة - حملت كلمة الفلسفة في الذاكرة الجمعية للعالم العربي دلالات سلبية، من حيث اعتبارها تفكيرا طويابيا صاحبه «يتفلسف»، بما لا يفهمه الناس. تعمدت هذه الدلالة خلال العقود الأخيرة مع تراجع ادوار الفلاسفة وابتعادهم عن الواقع، في وقت هم أكثر من يمثل الفكر المضاد للفكر الديني الاستهلاكي غير المبني على ضوابط دقيقة وقواعد تحمي الجمهور المستهدف من السقوط في شرك التشدد وتحمي المجتمعات من آفة التطرف.

ويرجع الدكتور سعيد توفيق، أستاذ الفلسفة وعلم الجمال بجامعة القاهرة، إلى غياب صناعة الفلسفة، خصوصا في المجتمعات العربية. ويفسر ذلك بقوله لـ«العرب»، إن «معظم ما يتم تدريسه في الجامعات هو مجرد نقل لأقوال فلاسفة وليس أفكارا فلسفية لاساندة أو أطروحات لنقد الفلسفة العالمية أو التراث».

**معظم ما يتم تدريسه في الجامعات هو مجرد نقل لأقوال فلاسفة وليس أفكارا فلسفية لاساندة أو أطروحات لنقد الفلسفة العالمية أو التراث**

ويعد توفيق واحدا من الذين وضعوا أيديهم على أزمة الفلسفة العربية، وأنفق جيل مشواره العلمي مهموما بتقهير الفلسفة، ومكررا أن غياب الفلسفة العربية لا يصب إلا في صالح التطرف، معتبرا أن التيار السلفي بكافة فروع روافده هو العدو الأول للفلسفة، فالسلفية بشكل عام ترفض التأويل وتعادي العقل، وعلى مدى تاريخ المسلمين عانى المفكرون العظام من ويلات استخدام العقل في تحديث المجتمعات.

إصداره لسيرة ذاتية بعنوان «الخطرات» استعرض فيها خبرات حياته وأفكاره وتحدث عن علم الفلسفة الذي يعيش حالة من التدهور الواضح في الكثير من الجامعات العربية، مستنثيا بعض جامعات شمال أفريقيا.

### غياب في صالح التطرف

يمثل توفيق نموذجا فريدا للمفكرين المهتمين بفكرة التأويل وطرح التساؤلات والتبشير بالعقل في مواجهة الهوم الحيوانية. وهو متخصص في علم الجمال، وحصل على درجة الماجستير في فكر شوبنهاور ورؤيته للفن، ثم حصل على درجة الدكتوراه في الاتجاه الفينولوجي في تفسير الخبرة الجمالية. وحصل على جائزة الدولة للتفوق في العلوم الاجتماعية بمصر منذ 12 عاما، ثم حصل في العام الحالي على جائزة الدولة التقديرية، وله 27 مؤلفا أبرزها «الخبرة الجمالية»، «عالمية الفن ومجملته»، «الفن تعميلا»، «أزمة الإبداع في ثقافتنا المعاصرة»، «السعادة، تاريخ موجز»، «تجلي الجميل»، و«عالم الغيطاني».



**الفن الإسلامي، الأدب الإسلامي، الاقتصاد الإسلامي، والسياسة الإسلامية... مصطلحات صاغت الأصولية الحاكمة للتأثير في العواطف الشعبية**